

الآداب العربية في أيام بني العباس

نهضت دولة بني العباس والعرب قد سئوا الغزو وزهدوا فيه لطول ما قاتلوا في الفت والفتوح فمالوا إلى الخفض والدعة واطمأنوا إلى الترف والتعظيم. وقد نضج العقل العربي فترع إلى البحث والتفكير ورغب في النظر في أنواع الموجود فانفتحت الأمة إلى قسنيين كبيرين قسم ينل الحضارة ويهذبها وقسم يترجم العلم ويزيد فيه والخلفاء يشاركونهم في كل ذلكم ويشجعونهم عليه فتم يأت عصر المأمون رحمه الله حتى بلغت العرب من العلم والحضارة ما لم تبلغه الأمم ولم تصل إليه الشعوب.

الخطابة

ولعلمكم لم تنسوا تلك الأحزاب السياسية التي أوجدتها الفتن الإسلامية واشرنا إليها آنفاً فقد أضعفت قوة العباسيين أمرها بالمشرق وقلت عزيمتها فاستحالت إلى احزاب دينية خالصة وقد تركت السيف والسنان ولجأت إلى القلم واللسان واعتمدت على الجدل والمناظرة معتدة بالعدل والحكمة معترزة بالفنفة والمنطق فكان للخطابة من ذلكم جمال وروعة لم يكونا لها من قبل ولاسيما بعد أن عرفوا أصول الخطابة عند اليونان بما ترجموه من كتب أرسطوطاليس. . وقد أصبحت الخطابة في أيام بني العباس صناعة تعلم وقد انفرد لدرسها جماعة أشهرهم إبراهيم بن محمد بن السكوني وبشر بن المعشور وقد وضعوا لها أدباً وشرائط خاصة دون بقية أنواع القول واشتد حرصهم على مراعاة الآداب والشرائط ولكن ذلك كله قد قيمت له الأسباب في أواخر أيام بني أمية كما هي القاعدة الفطرية فإن تغير الأحوال الأدبية وغيرها لا يحدث بقيام دولة وسقوط أخرى وإنما هو نتيجة تغير خفي في أفكار الأمة وعقائدها ومكوناتها.

وهذا التغير الخفي هو المؤثر الحقيقي في جميع ما يحدث للأمة من الاستحالات الأدبية والسياسية الخنقية.

وقد انحصرت الخطابة لذلك العهد في تنكم الأحزاب السياسية التي استحالت إلى دينية وسميت بالتكفين ولاسيما بعد أن استهان الخلفاء بصلاة الجماعة والخطابة وقد بدأت هذه الحصنة في أيام بني أمية وأول من أحدث ذلك فينا أعنم هو الوليد بن عبد المنك الذي أهمل أول أدب من آداب الخطابة فخطب جالساً على المنبر ولم يكن للناس بذلك عهداً وكثيراً ما لها الخلفاء بجواريتهم عن صلاة الجمعة وأتابوا عندها القواد ورجال الحاشية وقد تحدث صاحب الأغاني أن الوليد بن يزيد اصطحب يوم الجمعة فنا نودي للصلاة كره أن يفارق الكأس فبعث إلى الناس في المسجد الجامع بجارية تؤمهم في الصلاة.

ومما أبدع الوليد في الخطابة أنه شرب في يوم الجمعة فنا أردا الصلاة قال لندعائه والله لأخطبن الناس شعراً ثم صعد إلى المنبر فقال :

الحمد لله ولي الحمد ... نحمده في يسرنا والجهد

ثم استمر في أرجوزته حتى أتمها.

لذلكم فقدت الخطابة منزلته السياسية وعظم شأنها الديني عند التكفين فتبع فيها واصل بن عطاء وغيره وقد أدخل التكفون في الخطابة كلمات خصها العناء بهم وحظروها عنى غيرهم فقالوا أليس وليس يريدون الإثبات والنفي وقالوا لاشى المادة يريدون جعلها لا شىء وقالوا ماهية الحيوان يريدون حقيقته وقالوا كيفية الجسم يريدون شكله وصورته إلى غير ذلك مما يخطئ في كتابنا حفظهم الله يستعملونه بغير حق وما هم في استعماله إلا ظالمون وقد تحدث الجاحظ رحمه الله أن بعض التكفين سمع

في مجنس بعض الخنفاء رجلاً يتكنم ويقول أليس وليس فكاد يطير فرحاً ويتقد غيظاً
فأما الفرح فلأنه سمع كنته الاصطلاحية وأما الغيظ لأنه سمعها من غير متكنم أي من
غاصب لها معتد عندها ولم يأت عصر المعصم بن الرشيد حتى اعتمد العلماء على
الكتابة وأخذ ظل الخطابة في الزوال وربما كان آخر الخنفاء الذين خطبوا الناس من بني
العباس هو المتوكل بن المعصم.

ستفيد ذلك من قول البحري في تهنته بالعيد .

وروقت في برد النبي مذكراً ... بالله تنذر مرة وتبشر

الشعر

أما الشعر فقد رقي في أيام بني العباس حتى كاد يفنى حسناً ولطفاً وقد تصرف في أنواع
من القول وتعددت مذاهبه ومناحيه باتساع الحضارة واستفحال العمران وكبر العقول
والمدارك وأظنكم تفهون مقدار الفرق الكبير بين الشعر العباسي وغره من أنواع
الشعر العربي إذا سمعتم قول بشار في الشورى

إذا بلغ الرأي المشهورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عينك غصاصة ... فإن الخوافي قوة لنقوادم

أو قوله في المدح :

إذا أيقظتكم خطوب الزما ... ن فبده لها عمراً ثم تم

أو قول أبي نواس في الغزل :

دمعة كالنؤلز الرط ... ب عني الخد الشيل

ذرفت في ساعة الب ... ين من الطرف الكحيل

إنما يفتضح العشا... ق في وقت الرحيل

أو قول البحتري في الاستعطاف :

سيدي أنت ما تعندت ذنباً... فأجازى به ولا خنت عهداً

أتراني مستبدلاً بك ما عث... ت بديلاً أو واجداً منك ندا

حاش لله أنت لئن ألفا... ظاً وأحلى شكلاً وأصنح قددا

أو قوله في وصف عواطف الحب والبغض :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها... تذكرت القوي ففاضت دموعها

شواجر أرماح تقطع بينهم... شواجر أرحام منوم قطوعها

عنى أن القرن الثالث لنهجرة لم يكذب ينصرم حتى ذهب معه جمال الشعر العربي وأخذ الشعر يبدو في منظر سمح ومعرض رث.

الكتابة

بقيت صناعة من صناعات الآداب العربي لم نتكلم عنها في الجاهلية ولا في جميع الأعصر العربية إلى الآن وهي الكتابة وأظنكم تعلمون أن الجاهليين لم يكونوا عنى شيء منها لكأنهم من الأمية فأما في صدر الإسلام وأيام بني أمية فقد كانت الكتابة موجزة مجرأة إلى أن جاء عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء من بني أمية فأطال فيها وترسل قفى أثره كتاب العباسيين ولكنهم بالغوا في الأطناب وأغرقتوا في الترسل وظهرت في رسائهم صبغة الفلسفة التي اصطبغت بها عقولهم وقد أخذوا عن اللغات الأخرى كثيراً من الأساليب الجديدة ونبع فهم أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن وهب ولم يأت القرن الرابع لنهجرة حتى أخذت الكتابة العربية في الانحطاط وأخذ التكلف والمحاولة مكان الترسل والسهولة الفطرية.